سَمْت البيان النبوي في ضوء تحليل خطبة "يا معشر الأنصار"

أ.د.محمود حسن مخلوف*

الحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد

فإن هذه الدراسة المتواضعة تحاول أن تستشرف آفاق بيان النبوة لتحقق أغراضاً محددة، أو تقف قريباً منها ...

فهذه الدراسة تروم تحصيل أسباب السعادة فتحيا في ظلال النبوة ــ عقلاً وقلباً وإحساساً ــ وهذه همك من غرض...

ثم إنها تحاول استجلاء بيان النبوة في مجاليه المتعددة، ووسائل إعانته على تحقيق هداية المخاطبين بما يمثل الغرض الأوحد لهذا البيان العظيم ...

وأخيراً ... فإن هذه الدراسة تجتهد في تحديد ما اختص به هذا البيان دون إبداعات البيان العربي السابق والمعاصر والتالي لمنشئه ﷺ.

وقد كان لإشارات الأئمة الذين دونوا في الشمائل والخصائص النبوية فضل الإضاءة والعصمة في آنٍ على كاتب هذه الصفحات .

بيد أن هذه الدراسة ما إن اقتربت من هذا الغرض الثالث حتى أيقنت بضعفها وكلالها، وعشى بصيرة صاحبها، فكان الإحساس بالعجز الصارف بما لا طاقة له بدفعه ...

ولولا الاعتقاد الجازم بأن الشغل بهذا النوع من البحوث جزء من حق رسول الله ﷺ على الأمة = لولا هذا ما تجرأ القلم على تحبير سطر واحد من هذا البحث .

---

* أستاذ البلاغة والنقد في جامعة الأزهر

وإنما يتحقق الوفاء بجانب من هذا الحق بإدامة النظر والبحث في كلامه الشريف، الذي هو شطر مصدر هذا الدين الحنيف ـــ عقيدة، وشريعة، وأخلاقاً ـــ

ولا مشاحة في أن أصل هذا كله لن يتحقق، ولن يكتمل إلا بعد استكمال مفاتيح هذا البيان المكتنز برصد السمات والخصائص في حديثه الشريف كله...

وأنبه إلى أن هذه السمات والخصائص يجب أن تدرس على أنها من مِنن الله ـــ عز وجل ـــ على رسوله الكريم ﷺ وألا ينظر إليها على أنها من آثار "العبقرية" أو أنها من صور "الإبداع الأدبي"، كما ورد هذا على أقلام بعض الأفاضل ـــ حديثاً ـــ

ولقد حرصت في صوغ العنوان، وفي ثنايا التحليل على تكرار تعبير (بيان النبوة) لتثبيت هذه الحقيقة التي أجزم بها وأتيقنها، ممثلة في: أن كل ما صدر عن ذات رسول الله ﷺ لم يكن إلا جزءاً من حقيقة الاصطفاء الإلهي، ومظهراً من مظاهر : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء :١١٣] .

هذا وقد قرر شيخنا د/ محمد أبو موسى ـــ نضر الله وجهه ـــ أنه لم يقرأ كلاماً في وصف بيان النبوة أوفى وأدق من كلام الجاحظ في نصه الأشهر عن البيان النبوي: " هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزِّه عن التكلف... فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق... "[1].

إذا قرر الشيخ هذا ـــ وهو به جد خبير ـــ فلنتخذ من مقالة أبي عثمان هذه منارات وصوىً نسير على هديها في دراسات راشدة متتابعة، تفصل ما أشار إليه ذلكم الناقد الخبير ـــ رحمه الله ـــ ...

وفي ضوء هذا قصرت البحث على جانب مما ورد في وصف أبي عثمان في قوله : " هو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة ... لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة ... " الخ ما قال ـــ رحمه الله ـــ

وقد لحظت أن خطبة النبي ﷺ في الأنصار في شأن عطايا فئ (حنين) تتجلى فيها هذه السمات في أوضح صورها، فجعلتها مجالاً للتطبيق والتحليل بما يكشف

1- البيان والتبيين ١/١٢٤، وللبحث عود إلى هذا النص في ص:٥

السمات والخصائص ...

ثم إني ارتكزت في تحليلها على منهج "النظم" الذي اكتمل على يد الإمام عبد القاهر – رحمه الله – فهو المنهج الوحيد الذي ينهض بتحقيق مثل هذه الدراسات، دونما سواه من المناهج "المستوردة" تلك التي صنعت في سياقات وموروثات لا تتلاءم مع النظر في بيان النبوة، وإن اصطنعها أكثر الناس في زماننا، تقليداً، وتتبعاً لسنن النقد الأوربي الذي جل نقاده من اليهود والنصارى ...

وهذا مما ينبه إليه هنا فقط، ولتفصيله وإشباع الحديث عنه سياق آخر...

سمت[1] بيان النبوة :

لبيان النبوة خصائص في المعاني، والأساليب، والصور لم ترد وافية في بيانٍ سواه مما حبره أعلام البيان ...

وتفسير هذا دانٍ ميسر لمن يعرف شمائله ﷺ ؛ إذ إن تكوينه العقلي، والقلبي، واللساني قد ركبت فيه من خصائص النبوة ما فضل به على سائر الخلق أجمعين...

فالقلب الموحى إليه باللفظ والمعنى تارة، وبالمعنى تارة أخرى= قد هيئ من قبل فاطره – سبحانه – بخصائص مائزة، من حيث الطهر المصفى، واليقظة الدائمة، والبصيرة المكاشفة، والاتصال الدائم برب الأرض والسماء – سبحانه وتعالى –

والعقل الكامل، البالغ أقصى درجات الكمال البشري = قد علم كافة العلوم المأذون بها لبشر ... هذا العقل الشريف ما تكلم في فرع من فروع المعرفة، أو قضية من قضايا الحياة = إلا وكان كلامه أوفى ما قيل في سياقه، وأدقه، وأشمله ... لا يرد عليه خطأ، ولا يتبدى فيه خلل، ولا يلحقه نقص على تعاقب الأعوام والقرون ...

واللسان المبين الذي جمعت تحته العربية جمع استيعاب، وإحاطة، وإبانة ... فما تكلم بحديث إلا وكان حديثه فصل الخطاب، ومنتهى مقاصد اللُّسن المقاويل...

1- (سمت) بمعنى : طريق، والسمت : حسن النحو في مذهب الدين وغيره، وإنه لحسن السمت أي: حسن القصد في دينه ودنياه، والفعل سمت يسمت سمتاً، ينظر: لسان العرب مادة (سمت)، ومختار الصحاح مادة (سمت) .

وقد آثرها البحث هنا على منهج شيوخنا في إحياء مصطلحات التراث الإسلامي، التي كادت تغيب تحت سيل المصطلحات (المفروضة) علينا من أعدائنا المتسلطين...

فإذا كانت هذه الثلاثة هي أدوات صنع البيان عند كل مبين، وإذا كان حالها عند رسول الله ﷺ على هذا الوصف = فبدهي أن يكون لبيانه الشريف سمت خاص به، فيه من خصائص الوحي، والكمال، والإبانة ما يدركه كل صاحب بصر في دراسة النصوص، وتحليل أساليبها، وتمثل خصائص إبانتها...

قال أبو عثمان الجاحظ في وصف بيان رسول الله ﷺ : " هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف...

فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق ...

وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ...

لم تسقط له كلمة، ولا زلّت به قدم، ولا بارت له حُجة، ولم يقم له خصم، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر...

ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامهﷺ..".[1]

ورحم الله أبا عثمان، فكأن جل ما في هذا الوصف الكاشف الدقيق كان ناظراً إلى هذه الخطبة الحكيمة التي جعلتها محل التطبيق:

فإيجازها المتمثل في (قلة عدد حروفها، وكثرة عدد معانيها) يتجلى إذا ما قورن بكلام صدر من مبين غيره عالج به مثل هذه الحادثة أو قريباً منها ـ سياقا، وأحداثاً، وشخوصاً ـ فإني لأعتقد أن أقصى ما يبلغه جهد البليغ المصقع أن يطب هذه (البوادر) بكلام تضعف ألفاظه عدد ألفاظ خطبتهﷺ دون أن يأتي (بعدد معانيها).

وحاشا بيانه الشريف أن يكون (صنعة أو تكلفا) وقد أمر صاحبهﷺ أن

[1] ـ البيان والتبيين، ١/١٢٤.

يقول: (وما أنا من المتكلفين) [ص : ٨٦] .

وما أغناه ﷺ عن هذا كله، ثم ما حاجته إليه وكل ما يتصف به بيانه إنما هو من لوازم اصطفاء الله إياه ﷺ .

ولعل شيئاً من هذا قد حدا بأبي عثمان أن يعقب على ما مضى بما يعد تعليلاً له في تسع جمل متواليات : " ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ... وقلة حاجة السامع إلى معاودته ... "

فإذا تأملت الأربع العشرة جملة المتتابعة في وصف خطبه الإقناعيةﷺ (لم تسقط له كلمة ... ولا يسهب ولا يحصر ...) وجعلتها مصابيحك في استجلاء خطبة (يا معشر الأنصار) ـــ محل التحليل ـــ أيقنت مدى توفيق الجاحظ في وصف سمت بيان النبوة، سيما وأن هذه الخطبة من أشهر نماذج ميراث النبوة في هذا الاتجاه...

وهذه المظاهر الأربعة العشر متسقة تماماً مع ما سبق إيراده عن أبي عثمان في سياق تعداد خصائص بيانه الشريف ... الذي لا ينطق إلا عن ميراث الحكمة التي هي وحي معنوي مع القرآن ...

وهو الذي لم يتكلم إلا بكلام اجتمعت فيه ثلاثة أسرار إلهية : "قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق" هكذا ببناء أفعالها للمجهول إفادة بأن فاعلها المتعين هو الله ـــ عز وجل ـــ ثم صرح بإسنادها إلى الله ـــ عز وجل ـــ في الجمل التالية لها : (هو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة...)

الذي يتحقق في بيانه كل هذا لا يكون بيانه إلا موصوفاً بما نعته به أبو عثمان في قوله (لم تسقط له كلمة) ؛ إذ كيف تسقط وهي صادرة من نبع الحكمة الإلهية ؟!

وكيف تزل له قدم وهو محفوف بالعصمة الربانية؟!

وأنى تبور له حجة، أو يقوم له خصم وهو بيان مشيد بالتأييد الإلهي؟!

وهل يطيق خطيب إفحامه والتوفيق الرباني حليفه ؟

وما حاجته ﷺ إلى الخطب الطوال (وقد جمع الله له بين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام) ؟

ثم إنه قد تقرر لدى كل من عرف سيرته وسنته ﷺ أنه كان ينهى عن المراء وهو القائل : (ذروا المراء فكفاك إثماً أن لا تزال ممارياً) (ذروا المراء فإن المماري لا

أشفع له يوم القيامة)، (ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء وشرب الخمر) [1] فلا غرو أن يكون بيانه الشريف مبرءاً من أدران المراء وطرائقه من (التماس إسكات الخصم بما لا يعرف، والاحتجاج عليه بغير الصدق، وطلب الفلج بغير الحق، أو الاستعانة بالخلابة، والمواربة، والهمز، واللمز ..) وغير هذا من سمات بيان

(النظار وأمراء الجدل) الذين كان الجاحظ رأسا من رءوسهم **﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾** [فاطر : ١٤]

قصد أبو عثمان ـــ رحمه الله ـــ إلى تأكيد ما بدأ به في وصف بيان النبوة من إثبات خصوصية الاصطفاء الإلهي، ونفى إشارات التفوق البشري، الممزوج بالتصنع، والتكلف، والاحتشاد، والتحبير ...

ولكي يزيد الجاحظ قارئه يقينا فيما قرر ندبه إلى النظر المقارن بين كلامه ﷺ وكلام أمراء البيان العربي، ممهداً بذكر ما تجلى في بيانه الشريف مما لم يسمع الناس بمثله ..

قال ـــ رحمه الله ـــ : " ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً ... "

واكتفى ـــ رحمه الله ـــ بسرد عشرات النماذج النبوية من خطب، وحكم، وأثار منسوبة له ﷺ ثم أردفها بعرض مئات النماذج الأدبية الراقية المنسوبة إلى عدة ممن شهر بالرسوخ في ملكة البيان أمثال أبي بكر، وعمر، وعلي، ومعاوية، وعمرو بن العاص، والشعبي، والمأمون، وسهل بن هارون، وغيرهم ... سرد هذه النماذج سرداً في ثلاث وتسعين صفحة من كتابه [2] دون تعليق أو نقد على عادة رواد التأليف في البيان العربي، الذين كانوا يثقون في ملكة التذوق عند تلاميذهم الموهوبين، فيقرنون بين نماذج البيان أمام بصائرهم، فيغنيهم مجرد استعراضها، وتفرسها عن الحاجة إلى التوجيه والتعليل ...

---

[1] – المعجم الكبير للطبراني،ص: ٧ / ١٦٤

[2] – ينظر : البيان والتبيين، ١/١٣١ ـــ ٢٢٣

سمت البيان النبوي في غايته :

إن بيان البشير النذير ﷺ إنما يهدف إلى تحقيق هداية المخاطبين، والأمة من خلفهم، ويتغيا تحديد معالم الصراط المستقيم في كل ما نطق به لسانه الشريف...ﷺ

ولعل هذه الخصيصة مما ميز بها البيان النبوي على غيره من صور البيان البشري من حيث غاية الدراسة ...

ومن هنا فطن أولوا الألباب في كل جيل أن عظمى غايات دراسة البيان النبوي تتمثل في تحقيق تمام الانتفاع به، وعندهم أن هذا لن يتم إلا بتحقق الفهم الدقيق، والوعي الكامل لكلامه الشريف ﷺ واستنطاق كل ما حواه بيانه من صورة وأسلوب، ومفردة، وصوت، بل واستخراج ما استكن وتوارى خلف هذا كله من خبيئ مكنون ...

صلة المبين بالمخاطبين :

لا ريب في أن العلاقة بين صاحب البيان ومخاطبيه تترك آثارها العميقة الجلية على هذا البيان عاطفة، وفكراً، وتصويراً ...

و لم يحدث التاريخ الإنساني كله عن علاقة تماثل علاقة النبيﷺ بأصحابه البررة ــ رضوان الله عليهم ــ حباً، وإخلاصاً، وتفانياً، واقتداء، وصلة روحية دائمة، حتى بعد وفاته ﷺ ...

هذا مع كامل رأفته، وعظيم رحمته بهم، وإشفاقه عليهم، وحرصه على ما فيه نجاتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ...

ومصداق هذا قوله ــ تعالى ــ مخاطباً المؤمنين : **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**[التوبة:١٢٨].

هذه العلاقة الخاصة المتفردة في التاريخ البشري كله تجلت بوضوح مكاشف في منهج علاج هذه المواقف القليلة النادرة، التي صدر فيها من بعض الصحابة الكرام قول أو فعل، فيه مخالفة لمنهج الصحبة، وزلل عن صراطها المستقيم ..

وهذا مثل حادثة ندب جمع من الصحابة أسامة بن زيد ــ رضي الله عنهما ــ للشفاعة في حد المخزومية التي سرقت ... كما في الصحيحين عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ

وأخذ (ابن اللتبية) عامل رسول الله ﷺ هدية ممن استعمل عليهم... كما في

البخاري ومسلم عن أبي حميد الساعدي .

وتقاتل جمع من الأوس مع جمع من الخزرج بدعوى الجاهلية... كما في المعجم الكبير للطبراني عن ابن عباس.

ولعل من أعظم خصائص المنهج الإسلامي في التربية : أن القرآن الكريم، والسنة الشريفة يعرضان مثل هذه الأحداث بما فيها من مخالفات شرعية، ثم يعقبانها بوسائل علاجها، بل يرشدان إلى طرائق الوقاية منها في المستقبل ...

وهذا هو المنهج الأمثل في بناء النفس، والمجتمع، والدولة، حيث يكون الصدق والحق هما أساس المعاملة بين الأشخاص فيما بينهم وبين أميرهم، وفيما بين بعضهم بعضاً ...

فها هم السادة الأنصار — رضي الله عنهم — لما حدث بينهم سبب هذه الخطبة بادر سيد من ساداتهم، وهو سعد بن عبادة — رضي الله عنه — إلى إخبار رسول الله ﷺ بالأمر بأسلوب يمتزج فيه الأدب بالوضوح، حسبما اقتضاه المقام آنذاك ...

فما أن كان من النبي الكريم إلا أن بادر إلى طب الداء، وحسم الخلل، وإزالة اللبس في وضوح تام، ومكاشفة صريحة، على ملأ من الأنصار، حيث تم الحوار في صدق ومودة، نتج عنهما تحقق المقصد على خير وجه وأتمه...

منهج التحليل الملائم لبيان النبوة :

تعددت مناهج تحليل النصوص، وتكاثرت، لاسيما في العصر الحديث، وعامتها إلا النادر مترجم عن المذاهب والمناهج الأوربية، وهي — بلا ريب — لا تلائم خصوصية البيان النبوي، لذا فقد أعرض عنها البحث، مقتنعاً بما أفاده من منهج (النظم) في التحليل البياني، كما وضع أصوله الأئمة النقاد، وجلى معالمه عبد القاهر الجرجاني، وطبقه بحذق وشفافية كل من الأستاذ محمود محمد شاكر -رحمه الله- وشيخنا د/ محمد أبو موسى -زاده الله توفيقاً-.

ولعل فيما سبق ما يلزم بتسجيل مراحل التحليل بدءاً، حيث تمثلت فيما يلي:

- تجلية السياق الذي أديت فيه الخطبة، وذلك في ضوء ما ورد في سبب إنشائها، مع الإشارة إلى مدى تأثره ﷺ بهذا السبب، ومدى تمثله لحال مخاطبيه في ضوء

العلاقة الخاصة التي سبقت الإشارة إليها ...

- تفرس صور المعنى في النص، وتحديد مقاطعه، وهذا همك من عمل، جعله الإمام عبد القاهر الجرجاني ـــ رضي الله عنه ـــ الغاية العظمى مـــن تـــأليف (أسـرار البلاغة) .[1]

وإنما يتم هذا بالاجتهاد في تقسيم النص إلى مقاطع معنوية، بناء على تحديد أصل المعنى الذي يتعلق به غرض النص، ثم تتبع ما تفرع عنه سباقاً وتمهيداً، أو لحاقاً وتعقيباً، ثم محاولة كشف علاقات هذه المقاطع فيما بينها، وتحديد القسمات الخاصة بهذه المعاني الواردة في النص، بما يقضى له بالتفرد والخصوصية، وتساميه عن اقتفاء المهيع المطرد، والسبل التي تواتر عليها عامة أهل البيان ...

- ثالث هذه المراحل : ما يعني فيها بتحليل أجزاء النظم، ومكونـات صياغته ـــ صوتاً، ومفردة، وأسلوباً ـــ على أن تكون الغاية من هذا التحليل هو تجلية ما تضمنته هذه الأجزاء من أفكار، وإحساسات حشدت على قدر مُنَن منشيها ... كما قرر عبد القاهر ـــ رحمه الله ـــ

وهذه المرحلة الأخيرة هي التي عنى بها أكثر الدارسين، دون اللفت إلى كونها مبنية على ما سبقها، وأنها ـــ وإن كانت مجلى الموهبة البلاغية ـــ إلا أنهـا ـــ عند الراسخين ـــ لا تعدو أن تكون وسيلة الإبانة عن المعاني، تزكو هـذه الوسيلة في معارج البيان بقدر تحقيقها لغرضها المؤم ..

فإذا فُصِلت في الدرس عنها كان التحليل مفرغاً من قيمته الحقيقة قد وقـف صاحبه دون الغاية بآماد، وآماد ...

نص الخطبة :

روى الإمام أحمد في المسند عن أبي سعيد الخدري ـــ رضي الله عنه ـــ قال:

"لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب– ولم يكن في الأنصار منها شيء – وجَد هذا الحي من الأنصار في أنفسـهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم : لَقي رسولُ الله ﷺ قومه...

---

[1] – ينظر : أسرار البلاغة ٢٦ ت الأستاذ / محمود محمد شاكر ط المدني بالقاهرة وجدة سنة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م أولى .

فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال :

يا رسول الله : إن هذا الحي قد وجَدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبتَ ... قسمتَ في قومك، وأَعطيتَ عطايا عظاماً في قبائل العـرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء ...

قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال: يا رسول الله : ما أنا إلا امرؤ من قومي، وما أنا ...

قال: فاجمعْ لي قومك في هذه الحظيرة ...

قال: فخرج سعد، فجمع الناس في تلك الحظيرة، قال: فجاء رجـال مـن المهاجرين، فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم ...

فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار..

قال: فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل.

ثم قال :

يا معشر الأنصار : ما قَالةٌ بلغتْني عنكم، وجدةٌ وجدتموها في أنفسكم؟

ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكَم الله، وأعداء فـألف الله بـين قلوبكم ؟

قالوا : بل الله ورسوله أمَنُّ وأفضل ...

قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟

قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المنُّ والفضل؟

قال: أما والله لو شئتم لقلتمٍ ... فلصَدَقْتُم وصُدِّقْتُم ... : أتيتنـا مكـذَّبا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك ...

أوجَدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعَاعةٍ من الدنيا تألَّفتُ بهـا قومـا ليُسلموا، ووَكلتكم إلى إسلامكم ؟

أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والـبعير، وترجعـون برسول الله في رحالكم؟

فوالذي نفس محمد بيده : لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سـلك الناس شِعباً، وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شِعب الأنصار..

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار ..

قال : فبكى القوم حتى أَخْضَلوا لِحَاهم، وقالوا : رضينا برسول الله قَسْـماً

وحظاً.

ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقنا ".

سياق الخطبة :

يجمع المحدثون وأصحاب السير على أن هذه الخطبة الشريفة قد قالها النبيﷺ في حشد من الأنصار، لما بلغه موقفهم تجاه قسمة رسول الله ﷺ غنائم (حنين) في المؤلفة قلوبهم من قريش وغيرها من أحياء العرب، دون الأنصار، الذين لم يعط منهم أحد شيئاً من هذه الغنائم... (١)

وتفاصيل موقف الأنصار هنا تنكشف بصورة أوضح من مجموع روايات الخطبة :

ففي رواية المعجم الكبير للطبراني عن السائب بن يزيد ــ رضي الله عنه ــ: (فغضب الأنصار) ...

وربما يتصور أن هذا الموقف لم يكن عاماً من الأنصار جميعهم، بشهادة رواية أنس في دلائل النبوة للبيهقي : (أن ناساً من الأنصار ...

فقالوا : يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟!) .

وفي رواية أبي سعيد عند أبي يعلى الموصلي: أن هذا من أفرادهم، وانه لم يوافق عليه عامتهم ...

فعنه : أنه قال : " قال رجل من الأنصار لأصحابه : أما والله لقد كنت أحدثكم : أنه لو قد استقامت له قد آثر عليكم غيركم، قال : فردوا عليه رداً عنيفاً... "

١- ينظر : صحيح البخاري، باب غزوة الطائف عن عبد الله بن زيد بن عاصم، وصحيح مسلم، باب المؤلفة قلوبهم عنه أيضاً، ومسند الإمام أحمد عن أبي سعيد، ومصنف ابن أبي شيبة عن عبد الله بن زيد ٥٥٦/٨، والسنن الكبرى للبيهقي ٣٣٩/٦ عنه أيضاً، ومصنف عبد الرازق عن أبي سعيد ٦٤/١١، والمعجم الكبير للطبراني عن السائب بن يزيد باب /٢ جـ ٦ / ٢٨١، واللمع في أسباب ورود الحديث ٨٦/١، وعزاه إلى ابن أبي شيبة والمناوي ...

ويعاضد هذا ما جاء في المعجم الكبير للطبراني في رواية أنس ـ رضي الله عنه ـ " أن رسول الله ﷺ لما قال للأنصار : ما حديث عنكم بلغني ؟

فقال له فقهاؤهم : أما ذووا رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا ... "

ومع وجاهة هذا الرأي، وتساوقه مع ما هو مقرر عن رسوخ خلق الإيثار في الأنصار = إلا أن ظاهر أكثر الروايات يفيد أن شيئاً ما قد خطر في قلوب أكثر الأنصار، بدليل رواية البخاري :

" فكأنهم وجدوا ؛ إذ لم يصبهم ما أصاب الناس " أي من العطايا...

بل إن هذا الوجد قد ترجمت عنه الألسنة في السرار والتناجي، وفشا، حتى اقتضى الأمر أن يدخل سيد راشد من سادات الأنصار هو سعد بن عبادة على رسول الله ﷺ ليخبره بما فشا بينهم ...

وحينما سأله رسول الله ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله : ما أنا إلا امرؤ من قومي، وما أنا ... " كما في رواية مسند أحمد...

وهذا الموقف قد جاء على غير ما هو مقرر مشهور من أخلاق الأنصار الذين مدحهم القرآن بقوله : ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر : ٩] .

غير أن الفارق بين الموقفين -فيما ظنوه- أن إيثارهم بالقليل مع حاجتهم إليه كان لإخوانهم المهاجرين، فلم يكن فيه مدعاة للوجد أو للأقاويل، بل كان مدعاة للفرح بالتوفيق، والرضا بثناء الله ورسوله ...

أما هذا الموقف فقد التبس عليهم الأمر حين لم يعطوا من غنائم كانوا هم السبب في تحقيقها، بدليل نداء رسول الله ﷺ يوم (حنين) ـ عندما أدبر الناس ـ : (يا معشر الأنصار) مرتين، كما روى البخاري عن أنس ...

وفيه : أن الأنصار قالت : " إذا كانت شديدة فنحن ندعى، ويعطي الغنائم غيرنا ؟ " فلعل هذا هو السبب الأكبر في موقف الأنصار...

ولقد ضاعف هذا الإحساس عندهم أن الذين أعطوا أكثر هذه الغنائم كانوا من قريش، وموقفها بالأمس القريب لم ينس، ومن غير قريش من قبائل العرب، ممن ليس لهم في الإسلام سابقة ...

وقد غاب عن الأنصار هنا هدف هذا القسم الحكيم، و لم يفطنوا إلى حكمته الراشدة من تأليف هذه القلوب على الإسلام الذي دخلت فيه بعد لأي ولأواء، وعداوة متأصلة، ومعارك دامية، قد نالت صناديد القوم ما بين قتلى وجرحى ...

كل هذا قد اقتضى من صاحب الدعوة ﷺ أن يتألف هذه القلوب، ويطب أدواءها بما يطهرها، ويرسخ عقيدة الإسلام فيها ...

وعند صاحب الدعوة ﷺ أن الأنصار كانوا من الرسوخ واليقين بما ينأى بهم عن هذه المنازل جمعاء ...

وقد عامل رسول الله ﷺ إخوانهم المهاجرين المعاملة ذاتها، فلم يعط أحد من ساداتهم كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وأبي عبيدة، وسعد .. وغيرهم شيئاً من هذه الغنائم، لأنهم مثل الأنصار لم يكونوا بحاجة إلى تأليف قلب، وقد ثبت الله قلوبهم بالقول الثابت ...

وقد سرد الأئمة أسماء من أعطى من قريش، وكلهم من المؤلفة قلوبهم... [1]

ثم إنه قد ورد في نهاية رواية البخاري ما يشير إلى أمر مهم — هو من دلائل نبوته — ﷺ حيث ختم ﷺ خطبته بقوله للأنصار : (إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض) حيث شهد التاريخ الموثق بتحقق هذه الأثرة التي لاقاها الأنصار بعد وفاته ﷺ .

وكأن في صنيع النبي ﷺ مع الأنصار — رضي الله عنهم — في قسمة غنائم (حنين) توطيناً لأنفسهم على الصبر والاحتساب في مثل هذا الموقف الذي سوف يرون منه نماذج كثيرة فيما بعد، وأرشدهم ﷺ إلى أن الصبر هو الدواء لما سيلقون حتى تتم عليهم النعمة، ويختم لهم بالخير الذي بدأوا به حياتهم في الإسلام، ويكونوا رفقاء رسول الله ﷺ في منازل القيامة، وأولها : حوضه المورود ... ونعما هي من بشرى ...

وقد ترك هذا الموقف أثراً شديداً في نفس رسول الله ﷺ لأن للأنصار عنده

---

[1] — أورد ابن حجر في فتح الباري عن أبي الفضل بن طاهر في كتابه (المبهمات) أسماء المؤلفة قلوبهم من قريش، وهم : أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، وحكيم بن حزام، وأبو السنابل بن بعكك، وصفوان بن أمية، وعبد الرحمن بن يربوع، جـ ٢ ص ١٣٩

منزلة لا يشركهم فيها غيرهم ....

فهم الذين قال لهم ــ في رواية البخاري لهذه الخطبة ــ :

(الأنصار شعار، والناش دثار) حيث جعلهم أقرب الناس إليه، كما أن الشعار هو أقرب أنواع اللباس إلى الجسد ...

من أجل هذا كانت مبادرته السريعة إلى علاج هذا الموقف بمجرد سماعه الخبر، وتثبته من حقيقته ...

يدل على هذا ما جاء في رواية أحمد عن أبي سعيد : (اجتمع أناس من الأنصار، فقالوا: آثر علينا غيرنا، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فجمعهم، ثم خطبهم، فقال: يا معشر الأنصار ...) فتعاقب الأحداث المدلول عليه بفاءات العطف شاهد على هذه المبادرة والإسراع ..

ويشعر بهذا أيضاً ما جاء في رواية الطبراني في المعجم الكبير عن السائب بن يزيد : (... فلما سمع بذلك النبي ﷺ أتاهم في منازلهم، ثم قال: من كان ههنا ليس من الأنصار فليخرج إلى رحله ...)، وإتيانهم في منازلهم دال على شديد الاعتناء بالأمر، كما هو دال على عظيم قدرهم عنده ﷺ .

وسوف تترجم تعبيرات الخطبة عن هذا القدر المنيف، والمقام الشريف الذي تبوأه السادة الأنصار ــ رضي الله عنهم ــ في قلب رسول الله ﷺ ومدى امتنانه لهم في مثل قوله :

(ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ...

أما والله لو أجبتموني بغير هذا القول لقلت : صدقتم ..

لو قلتم : ألم تأتنا طريداً فآويناك، ومكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وقبلنا ما رد الناس عليك ؟ لو قلتم هذا لصدقتم .

كما يبين هذا القدر المنيف من تلكم الموازنات المتوالية بين الأنصار ومن عداهم من أهل السابقة، وهذا في قوله ﷺ :

(لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ...

ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار).

كذلك يبين هذا من قوله ﷺ لهم كما في رواية الطبراني عن السائب : (يا معشر الأنصار : ألم يمن الله عليكم بالإيمان، وخصكم بالكرامة، وسماكم بأحسن الأسماء : أنصار الله، وأنصار رسوله...)؟

وأظهر ما يتجلى فيه قدرهم وعظيم مكانتهم عند رسول الله ﷺ ما ثبت في المعجم الكبير من نهاية هذه الخطبة، حيث أجاب الأنصار رسول الله ﷺ بأدب عظيم وتواضع كبير فقالوا : (بل لله ولرسوله المن والفضل، وعلى غيرنا ...

ثم بكوا ...

فكثر بكاؤهم ...

فبكى النبي ﷺ معهم ...

ورضي عنهم ...)

هذه الخاتمة : تترجم بدقة وشفافية عما أفعمت به هذه القلوب من حب، وإخلاص، وتواضع، وأدب ليس له نظير في تاريخ الإنسانية.. فليس ببدع بعد هذا أن ترد هذه الخطبة على ما وردت عليه، نظماً فريداً في تراث النبوة كله ...

حركة المعنى في الخطبة :

هذه الخطبة مكونة من قسمين رئيسين :

أولهما : يتمثل في سرد أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ سياق الخطبة والأحداث التي سبقتها ... :

ثانيهما : نص الخطبة التي طب بها ﷺ الموقف...

فأما القسم الأول : فجذره قول أبي سعيد :

(لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطي من تلك العطايا ... وجد هذا الحي من الأنصار ...)

فهذه الفقرة هي أصل البناء اللغوي والمعنوي، وكل الفقرات التالية متفرعة عنها لفظاً ومعنى ..

فالمقطع الثاني : (فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال : يا رسول الله...) معطوف على جواب (لما) في المقطع الأول : (وجد هذا الحي من الأنصار)، وما تعلق به، وهو متفرع عنه في المعنى أيضاً، حيث إنه يفيد بلوغ خبر موجدة الأنصار رسول الله ﷺ على لسان سعد بن عبادة .

كذلك قد عطف هذا المقطع الثالث : (فخرج سعد، فجمع الناس.. فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار ...) .

ومن حيث المعنى فإن هذا المقطع مترتب على سابقه، فهو يتضمن تنفيذ سعد أمر رسول الله الوارد في آخر المقطع السابق : (فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة) .

وآخر جملة في هذا المقطع : (فلما اجتمعوا أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لـــك هذا الحي من الأنصار) هذه الجملة تمثل خاتمة القسم الأول من الخطبة الذي جاء كله بلسان أبي سعيد ـــ رضي الله عنه ـــ

على حين يبدأ القسم الثاني بقول أبي سعيد:

"فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه ... "

ونظوم هذا القسم الثاني هي المقصودة بالدراسة والتحليل .

أما القسم الأول فمما يجدر إيراده في دراسة خاصة بسمت بيان أبي ســـعيد ـــ رضي الله عنه ـــ ضمن موسوعة بلاغية تحليلية تشمل سمات بيان الصحابة الرواة ـــ رضي الله عنهم ـــ

فقط ... ينبه إلى أن توسم فوارق قسمات البيان بين القسمين يقضي بتحقق فوارق جوهرية بين البيانين بقدر ما بين النفسين الكريمتين من فـــوارق في القلـــب، والعقل، واللسان .

وجذر المعنى في الشطر الثاني هو قوله ﷺ : (يا معشر الأنصار: ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ؟) وفيه استفهام معاتب يفتح آذان وقلوب الأنصار، ويهيئها لاستيعاب بقية المقاطع التالية ...

ثم تتابعت مقاطع هذا الشطر مفتتحة بالاستفهامات ذات الدلالات المتنوعة، والتي تتلاقى في محيط الغرض الأصلي من علاج آثار العطايا على الأنصار ...

فالمقطع الثاني مفتتح بالاستفهام التقريري : (ألم آتكـــم ضـــلالاً فهـــداكم الله...) جاء هزاً قوياً يبلو به رسول الله ﷺ ثوابت الإيمـــان في قلـــوب الأنصـــار، واستبانة لقيمة ما بلغه من (قالة : وجدة) أهو أمر عارض طارئ، أو له جذر غائر في النفوس؟

وقد وفّق الأنصار، وتجلت حقيقة إيمانهم، ورســـوخ اعتقـــادهم، وجـــاءت إجاباتهم عقب كل تساؤل :

(بل الله ورسوله أمن وأفضل...)

بعد هذا انتقل ﷺ في المقطع الثالث إلى كشف مآثر الأنصـــار، وتســـجيل مناقبهم بلسانه الشريف، بما لم يصنعه ﷺ مع غيرهم من أهل السابقة .. وجاء هـــذا المقطع أيضا مصدراً بالاستفهام : (ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟) وكـــأن في هـــذا استثارة وإغراء بإجابته بذكر مآثرهم؛ لتكمل الطمأنينة في قلب رسول الله ﷺ علـــى

صحبه المرضيين، ويتم يقينه فيهم ..

أي : ألا تجيبون امتناني عليكم بامتنانكم عليَّ بما قدمتموه للإسلام من جهاد، ونصرة بالنفس والمال، وتضحية، وإيثار ... ؟

لكنهم ـــ رضي الله عنهم ـــ ترقوا في أدبهم العظيم مع رسول الله ﷺ فرددوا عبارتهم الأولى :

(ولله ولرسوله المن والفضل) .

فلما تيقن رسول الله ﷺ حقيقة ما في قلوبهم بما ترجمت عنه ألسنتهم = بادر فقال :

"أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدَقْتُم وصُدِّقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك...".

على أن هذه المقاطع الثلاثة تعد تمهيداً للمقطع الرابع الذي يحسم أصل الحادثة، ويقطع سبب (الوجد، والقيل) .

وقد ابتدئ هذا المقطع باستفهام أيضاً :

(أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة ...) ثم عطف عليه استفهام مؤازر :

(أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يرجع الناس بالشاة والبعير...)

ثم يترقى بالإحساس إلى ذروته في المقطع الخامس، متمثلاً في القَسَم:

(فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار) معطوفاً عليه ما يندرج تحت مدخول القسم :

(ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار).

وفي هذا غاية الثناء، ومنتهى التكريم بما لا يرجحه فضل في ميزان الإسلام...

وكأن نفسه الكاملة ﷺ قد كملت طمأنينتها، وتم يقينها باطلاعها على ما أفعمت به قلوب الأنصار من رضى وحبور، فزادهم بدعاء مستجاب، ورحمة محققة تعمهم وتعم أبناءهم، وأحفادهم ... فجاء المقطع الأخير من الخطبة بدعاء فريد في موروث أدعيته ﷺ :

(اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار).

ثم يطل علينا نسق أبي سعيد ـــ رضي الله عنه ـــ مرة أخرى ليختم روايته بالمقطع الأخير، وهو جد مؤثر بما فيه من تصوير حي لتحقق الغرض المقصود، حيث

قال أبو سعيد :

(فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ...) ندما، وحياء، وأدباً، ثم فرحاً ورضى بما بشرهم ومنحهم رسول الله ﷺ .

تحليل نظوم الخطبة :

هذه الخطبة الشريفة بنيت على أساليب الإنشاء من فاتحتها إلى خاتمتها ...

حيث استهلها أفصح العرب ﷺ بقوله :

(يا معشر الأنصار: ما قالة بلغتني عنكم ؟)، واختتمها بدعائه الميمون: (اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار ...)

ومقرر لدى دارسي البلاغة أن أساليب الإنشاء تناسب المقامات التي ترتفع فيها نبضات الإحساس، وتلتهب فيها العواطف، فتتدفق العبارات الوجدانية في صورة نداءات موقظة، واستفهامات ذات دلالات متنوعة، وأساليب شرط مؤذنة بالتلازم، وأقسام معظمة، ثم ختمت بأسلوب الدعاء الذي أفرغ على الخاتمة ميازيب السكينة والطمأنينة، وغاية الرضا المأمول ...

ومن الملاحظ أن رهافة الإنشاء قد شملت بإيحاءاتها كل كلام الرسول الأعظم في هذه الخطبة :

(يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم ؟

(ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ...)

(ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟)

(أما والله لو شئتم لقلتم ...)

(أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار؟)

(أفلا ترضون يا معشر الأنصار ... ؟)

(فوالذي نفس محمد بيده ...)

(اللهم ارحم الأنصار ...)

على حين جاءت تعبيرات الأنصار في أساليب خبرية، صريحة تارة، وفي صورة استفهامات تقريرية تارة أخرى ...

فمن الأولى : (بل الله ورسوله أمن وأفضل)

ومن الثانية : (وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المن والفضل) ؛ إذ

مآل هذا الأسلوب عدم الإجابة، تحاشياً للمراء ؛ تأدباً مع رسول الله ﷺ سبب المن الإلهي الأكبر ..

وتفسير توالي أساليب الإنشاء على لسان رسول الله ﷺ وورود كلام الأنصار ـــ القليل هنا ـــ على سبيل الخبر، تفسير هذا لا يعوز إلى كثير تأمل...

وذلك لأن انفعال الأنصار ـــ رضي الله عنهم ـــ بالموقف = (موجدة) أي : حزن قلبي حاول الأنصار كظمه قدر طاقتهم ؛ تأدبا مع رسول الله ﷺ .

فلما تفلت منهم في صورة (قالة) عاودهم حياؤهم من الله ورسوله، وغالبهم ما شهر عنهم من الإيثار ... فجاءت عبارات الإجابة القليلة في صورة الخبر، أو ما يؤول إلى الخبر؛ إذ هو الوعاء الملائم لمثل هذه المعاني وأحوال المعبرين عنها ...

أما صاحب الدعوة ﷺ فلقد أثر فيه ما علمه من موقف الأنصار؛ لأنه غير متوقع البتة؛ فتاريخهم في الإسلام يثبت لهم عكس هذا الموقف العارض، وثناء الله، وثناء رسوله على الأنصار يبرز فيهم دائما خلق البذل والإيثار في الخاص والعام ... مع ملاحظة أن شيوع هذا الموقف بين عامة الأنصار مما زاده أهمية عند رسول الله ﷺ، فضاعف كل هذا من درجة انفعال رسول الله ﷺ تجاه هذه الواقعة.

فلا عجب أن جاءت دفقات الإحساس المتوتر مصوغة في جمل الإنشاء المتنوعة، تلاؤماً مع حاله الشريف ﷺ ...

أما ترقي هذه الأساليب في الخطبة تلاؤما مع تصاعد درجات الانفعال في النفس فهو أمر بين، مع ملاحظة أن النفس الكاملة لم يأت انفعالها المتصاعد كما هو عند غيره ﷺ، بل كانت عصمة النبوة، ونور الوحي يضبطان هذا الانفعال، فجاء متدرجا مع تصوره ﷺ لحال مخاطبيه بعد سماعهم كل مقطع من مقاطع الخطبة ...

يبين هذا بتأمل القسم الأول من الخطبة الذي تقابل فيه الانفعال بين الشدة واللين :

فأما انفعال الشدة ففي مقطع : (ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ...)

وأما انفعال اللين ففي مقطع : (ألا تجيبوني يا معشر الأنصار...)

والأول كان حتماً، لتصفية نفوس القوم مما علق بها، أو سنح في بعض خواطرها، فذكرها بأحوالها السابقة قبل مجئ الإسلام، وما كانت عليه من ضلالة، وفرقة، وعالة ...

وقد أثمرت هذه التصفية ما تمثله جملة الإجابة منهم : (بل الله ورسوله أمن

وأفضل) .

فلما تضاعف يقين رسول الله ﷺ في صفاء نفوس أصحابه، وطهارة قلوبهم جاء انفعال اللين، فعاملهم بأسلوب التزكية، فذكرهم بمآثرهم، وصنائعهم مع الدعوة وصاحبها ﷺ، فقال :

(ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ...) أي : على طريقة إجابة الخطباء بعضهم بعضاً ...

بيد أن جواب الأنصار قد ضاعف لين الرسول الرحيم معهم، وزاد من تحببه إليهم — رضي الله عنهم — سيما بعد أن قالوا في أدب وتواضع :

(وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل ؟)

ولقد تسامى هذا اللين النبوي على معارج أربعة :

أولها : بتعداد صنائع الأنصار مع صاحب الدعوة ﷺ بقوله : (أما والله لو شئتم لقلتم — فلصدقتم وصدقتم — : أتيتنا مكذباً فصدقناك ...

ولعل في هذا ما يعادل مقطع الشدة السابق في قوله : (ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟)

ثانيها : جاء بياناً شافياً في أمر العطايا — الذي هو أصل الحادثة ومثير الموجدة — وهذا بقوله : (أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ...

فالهدف الأسمى من هذه العطايا هو تأليف القلوب التي لم يرسخ أصحابها في الإسلام، والأنصار من الرسوخ واليقين بما لا حاجة لهم في هذا...

ثالثها : ورد في صورة مقارنة محسومة النتيجة بين ما خص به المؤلفة قلوبهم، وعادوا به إلى رحالهم، وما خص به الأنصار وعادوا به إلى رحالهم :

(أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون أنتم برسول الله في رحالكم ؟) ... ولا مقارنة البتة بين الغنمين...

رابعها: ما ترقى فيه اللين إلى أعلى درجاته، حين آثر رسول الله ﷺ الأنصار على كافة (الناس) — أى المسلمين — مستفتحا بالقسم الحاسم : (والذي نفس محمد بيده : لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار...)

وليس بعد هذا من تودد وتحبب، فلا عجب بعد صدور هذا كله من أرحم قلب، وترجم عنه أصدق لسان أن يكون له من التأثير ما حقق المقصد، وبلغ غاية

المرتجى..

ثم تمثل هذا اللين عياناً في صورة دعوات تلين لها الصم الجلاميد: (اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار ...) فما كان إلا البكاء الذي اختلطت فيه دموع الندم على ما فرط منهم، والفرح بما أعطوا، والرضا بما خصوا به من الدعاء العظيم...

ونعما ما أعطوا ــ وأيم الله ــ فلقد ذهبت العطايا ومن أعطيها، وبقيت هذه المآثر الخالدة للسادة الأنصار ــ رضي الله عنهم ــ تيجاناً فوق رءوسهم في الدنيا والآخرة ...

هذا عن بلاغة المعاني الكلية للإنشاء ... أما بخصوص دلالات شواهد الإنشاء في الخطبة فهي متفرعة عما سبق تقرير أصله العام:

فالنداء ورد أربع مرات في الخطبة متعلقاً بمنادى واحد هو : (يا معشر الأنصار) ...

ولعمري .. لقد صارت هذه العبارة ترجمة ــ أي عنوانا ــ لهذه الخطبة لدن أهل العلم .. وفي تكرارها مزيد اعتناء، وتساوق مع تدرج حالات الانفعال في الخطبة ..

فقد افتتحت بها الخطبة إيقاظاً وتنبيهاً، وجمعا للعقول والقلوب، لتعي مقطع الشدة المذكِّر : (ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ؟)

ثم كررت ثانية في مطلع المقطع المقابل، الذي يصور بداية لين رسول الله ﷺ: (ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟)

ويلحظ في هذا وتاليه أن الاستفهام قد تقدم على النداء على غير المطرد الذي سبق توجيهه، وربما روعي اكتمال التنبه والتيقظ لدى القوم بما لا مزيد بعده، فلم يتقدم النداء، على حد قوله ــ تعالى ــ : **﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**.

وفي مجئ (يا معشر الأنصار) هنا مؤخراً مضاعفة للتذكير بأنهم معشر النصرة والبذل، وليسوا معشر الأخذ والاستشراف إلى العطايا...

وفي هذا السياق جاء الموضعان الآخران مثل سابقهما مكرراً فيهما النداء عن الاستفهام :

(أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار؟)

(أفلا ترضون يا معشر الأنصار ؟)

والتوجيه البلاغي فيهما مثله ...

أما الاستفهام فقد ورد ست مرات في الخطبة : خمسة على لسان رسول الله ﷺ وواحد على لسان الأنصار ...

فأما ما جاء على لسان رسول الله ﷺ فأولها قد ورد في فاتحة الخطبة:

(ما قالة بلغتني عنكم، وموجدة وجدتموها على في أنفسكم ؟)

والاستفهام هنا دال على الإنكار والعتاب، وكأنه ﷺ ينكر عليهم حدوث القالة والموجدة، ويعتب عليهم هذا ...

وقريب من هذا ما جاء في أسلوبي:

(أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة ...)

(أفلا ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون أنتم برسول الله في رحالكم ؟)

حيث دل الاستفهامان على إنكار صدور هذين الفعلين من الأنصار، وتوجيه العتب إليهم بسببهما ..

ولا يكمل فهم دلالة الإنكار والعتب هنا إلا بعد استكمال جملة الاستفهام بكافة ملحقاها ...

فالاستفهام الأول: (أوجدتم ...) إنما يتم فهم مقصده بعد إدراك سبب هذا الوجد : (في لعاعة من الدنيا)، ثم بيان غرض العطاء لغير الأنصار: (تألفت بها قوما ليسلموا) مع بيان سبب عدم إعطاء الأنصار : (ووكلتكم إلى إسلامكم) .

وهنا يبدو سبب الإنكار، ويظهر موجبه بما يرفع العتاب إلى درجة اللوم لمن غفل عن هذه المقارنة، سيما وأهم نظروا لمن أعطى من المؤلفة، ولم ينظروا إلى من لم يعط مثلهم من أهل السابقة من المهاجرين ...

وأما استفهام (ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟) ففيه حث وإغراء بإجابة مقالة رسول الله ﷺ : (ألم آتاكم ضلالاً فهداكم الله؟)

وكأنه ﷺ أراد أن يبلو سرائرهم، فحضهم على إجابة خطبته، فما كان منهم سوى الأدب والتواضع باستفهام يظهر التسليم والإذعان لمقالة النبي الكريم، فقالوا :

(وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟)

معقبين بذكر السبب (ولله ولرسوله المن والفضل) .

أما الاستفهام (ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟) فهو وارد على سبيل التقرير، وتذكيرهم بما لا يجحده أحد منهم ..

ويلحظ أن من سمات الاستفهام في هذه الخطبة الشريفة: أن مدخوله تعطف عليه معطوفات داخلة في حيز الاستفهام، وكأنها أساليب استفهام متتابعة بنيت على أداة واحدة في الصدر :

(ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟، وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟)

وعلى نسقه قوله الشريف: (ما قالة بلغتني عنكم؟ وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ؟)

كما يلحظ أن همزة الاستفهام دخلت على (لم) النافية عندما تعلق الاستفهام بالماضي المقصود به التقرير (ألم آتكم ضلالاً ... ؟) وأنها دخلت على (لا) النافية عندما تعلق الأمر بالمستقبل على سبيل الحث والإغراء : (ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟) وهذا شأنها مركبة في كافة المواضع ــ فيما أظن ــ ...

على حين دخلت همزة الاستفهام على (لا) المسبوقة بالفاء : (أفلا) عندما عقب الاستفهام الأول بنظير له على معنى مقارب :

(أفلا ترضون أن يرجع الناس ... ؟)

وفي توالي هذه الأساليب بصياغاتها المتنوعة، ودلالاتها المتعددة ما يشبه معاودة الكي على موضع الداء حتى يطمئن الطبيب إلى تمام برئه ــ كما قرر عبد القاهر ــ رحمه الله ... من أنه في مثل هذه الحال وجب أن يتوخى دائماً فيهم ما يتوخاه الطبيب من تعهده بما يزيد في مُنّته، ويبقيه على صحته، ويؤمنه النُّكس في علته. (١)

وأدق ما يجب التنبيه إليه في رصد خصائص الإنشاء في هذه الخطبة أنه لم يرد فيها أسلوب صريح بالأمر أو النهي مما شاع وكثر في بيانه الشريف حتى بنيت عليه خطب وأحاديث كاملة مثل :

١- دلائل الإعجاز ت ٤٨١ شاكر ط المدني بالقاهرة وجدة سنة ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م ثالثة.

والمنّه : القوة، والنكس : بضم النون وفتحها العود في المرض بعد قرب الشفاء.

(اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن). رواه الترمذي في سننه وأحمد في المسند عن أبي ذر.

(أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) رواه ابن ماجة عن عبد الله بن سلام.

(لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانا) رواه مسلم عن أبي هريرة.

ولعل هذا من المواقف ذات الحساسية التي يستحسن من البليغ أن يتلطف بمخاطبه في توجيه النصح، فيسوقه في غير صورة الأمر والنهي الصريحين، لكونهما لا يخلوان من ثقل على النفس، فلا تتقبلهما إلا وهي في حال الرضا التام والصفاء الكامل.

ولو تتبع دارس أساليب التشريع والتوجيه في بيانه الشريف، مصنفاً إياها على أساس صور ورودها لانكشفت بين عينيه معالم وخصائص تاخذ بالألباب، ولوقف على أسرار آسرة في طريق صياغة بيانه الشريف، سيما في هذا الجانب الذي يمثل جل دعوته ﷺ ...

أما أساليب الخبر في الخطبة: فقد سبق ذكر أن ما ورد منها كان على لسان الأنصار ــ رضي الله عنهم ــ مثل :

(ولله ولرسوله المن والفضل) وانها كررت مرتين، لكونها تمثل الموقف الراسخ للأنصار في أن ما قدموه في سبيل الله للدعوة وصاحبها إنما هو بفضل الله ومنّه أصالةً، وبفضل رسول الله ﷺ سبباً ووسيلة..

على أنه قد جاء القسم في كلامه ﷺ مرتين، ومقرر أنه من أبرز أساليب التوكيد :

أولهما: في قوله ﷺ : (أما والله لو شئتم لقلتم ــ فصدقتم وصدقتم ــ : أتيتنا مكذبا فصدقناك ...)

وقد آزر التوكيد بالقسم هنا التوكيد بـ(أما) الاستفتاحية، وهي كأختها (ألا) لا تأتي إلا في صدر المعاني المهمة، والأخبار الخطيرة.

كما أن جواب القسم (لو شئتم لقلتم) وكّد بطريق لطيف، حيث حذف مفعول فعله والتقدير : لو شئتم القول لقلتم، وهو مفيد للبيان بعد الإبهام كما نص عبد القاهر في نظائره، مقرراً " أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام، وبعد التحريك له

أبداً لطفاً ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك..." [1]

ثم إن الاعتراض بجملة (فلصدقتم وصدقتم) إطناب يبسط المعنى المؤم بيانه، وينير حواشيه، وينشر معنى "الصدق" بوضاءته، وسموه، ورسوخه في هذا السياق المتوتر ...

ثاني القسمين: (فوالذي نفسي محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار) .

وهو قسم خاص ببيانه الشريف، حيث انتشر فيه بما يستوقف نظر الدارس الواعي، ويلزم ذوي الهمم العالية بصنع دراسة خاصة به، تستقصي مواضعه، وتستنطق مقاماته، وتتوسم المعاني التي ورد هذا القسم الشريف لتوكيدها، وبيان مدى تلاؤمها مع صيغة هذا القسم، وما اختصت به دون سابقه ونظائره..

كما أن من وسائل التوكيد في هذه الخطبة : أسلوب القصر الوارد في قول الأنصار ـــ رضي الله عنهم ـــ : (ولله ولرسوله المن والفضل) حيث إن تقديم المسند (لله ولرسوله) على المسند إليه (المن والفضل) يفيد قصر استحقاق المن والفضل على الله ورسوله ..

وهذا القصر الهادئ المفاد بدلالة الفحوى، واقتصاء السياق ملائم لحال التواضع والحياء اللذين أفعما قلوب الأنصار في ذلك المقام، حيث ذابت نفوسهم أدباً وانكساراً بين يدي رسول الله ﷺ فلم تنبس شفاههم إلا بهذه الجملة الشفيفة التي تشع حروفها أدباً زاكياً وخلقاً رفيعاً ...

ومما يقوي التوكيد بجملة القصر هنا : أنها تكاد تكون تكراراً لجملة مقاربة سبقتها بسطر واحد : (بل الله ورسوله أمن وأفضل) وكلتاهما واردتان على لسان الأنصار ـــ رضي الله عنهم ـــ في حوار رسول الله ﷺ إياهم ..

غير أن جملة (بل الله ...) قد صيغت في غير أسلوب القصر، وإن صدِّرت بـ(بل) إضراباً ونفياً قاطعاً لما يمكن للخاطر أن يتصوره بسبب ما هم فيه من موجدة...

وكأن جملة القصر جاءت ترقياً في تقرير هذه الحقيقة من اعتقاد عظيم الفضل والمنة من الله ورسوله ...

---

[1] – دلائل الإعجاز ١٦٣، ١٦٤.

ومن سمات بيان النبوة : اكتمال منهج اختيار المفردات التي تجمع بين التصوير، والدقة، والإيحاء بأصل المادة، أو بدلالة الصيغة ...

ومن الأول :

لفظ (لعاعة) الوارد في قوله ﷺ : (أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ..)

واللعاعة واحدة اللعاع كغراب، وهو نبت ناعم في أول ما يبدو، أو هو نبات لين من أحرار البقول فيه ماء كثير لزج . ولعاع الشمس: السراب...

واللعاعة : البقية اليسيرة من كل شيء...

وكل هذه المعاني مقصودة في دلالة اللفظة في سياق ورودها هنا:

فما أعطى المؤلفة من غنائم (حنين) ـ على كثرته، وانبهار الناس به آنذاك ـ لا يعدو في حقيقة الأمر أن يكون (لعاعة) أي نباتا لينا ناعماً فيه ماء كثير لزج مغر للناظرين ثم لا يلبث أن يجف ماؤه، وتتبدل نعومته ولينه، وتنكشف حقيقته لذوي البصيرة مثل السراب ...

يصدق هذا ما ورد في (تاج العروس) من حديث:

" (إنما الدنيا لعاعة) يعني كالنبات الأخضر، قليل البقاء "[1]...

ومن المفردات الدالة بهيئة الصيغة في هذه الخطبة :

(قالة، وجدة) وقد وردتا في فاتحة الخطبة :

(يا معشر الأنصار : ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم؟) .

واللفظتان على زنة اسم المرة (فعله) وإن حذفت فاء الثانية، والوزن هنا يشي بمقصده ﷺ في مستهل خطبته من تهوين الأمر، وتخفيف حدته، وسل فتائل الغضب من النفوس حتى توضع الأمور في نصابها بميزان رسول الله ﷺ وليس كما تصورتها طائفة من القوم، فعظمت، وهالت ...

والغرض من إيراد اللفظتين هنا يتلاقى ويتناسق مع الغرض من اختيار لفظة (لعاعة) في تصوير حقيقة العطايا وبيان قدرها عند الله ورسوله...

ومن سمات بيان النبوة الدقة الموحية في إسناد الأفعال إلى فاعليها في مثل :

---

[1] ـ ينظر : تاج العروس ١/٥٥٢٤، ٥٥٢٦، المكتبة الشاملة الالكترونية ـ الإصدار الثاني.

(ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم) .

فلما كان الكلام على لسان رسول الله ﷺ أسند إحداث الهداية، والإغناء، والتأليف إلى (الله) ــ عز وجل ــ باعتبار أنه الفاعل الحقيقي لهذه الأفعال، وإن كانت في ظاهرها تصدر من فاعلين من البشر، وتسند إليهم باعتبارها ..

وعلى اعتبار الحقيقة المطلقة وجِّه رسول الله في القرآن بمثل قوله تعالى :

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ .

﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

ومن الاعتبار الفرعي قوله تعالى مخاطباً نبيه :

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

فلما كانت موجدة الأنصار محصورةً في قَسْم رسول الله العطايا كان من الأليق أن يسند الرسول البليغ هذه الأفعال (هداكم، أغناكم، ألف) إلى الله مباشرة، دون ذكر سببيته ﷺ في حدوثها جميعاً، فلم يقل (هديتكم، فأغنيتكم، فألفت بين قلوبكم) على المجاز الإسنادي ..

وفيه ــ أيضاً ــ هضم للنفس، والتبري من رؤية الأفعال ونسبتها إلى الذات... تعليما للأنصار، وتوجيها لهم بالتأسي برسول الله ﷺ .

فإذا كان الرسول المعظم، مع سببيته، وجهاده، وهجرته، وصبره، وانقطاعه، وعظيم مكانته عند ربه ينكر ذاته، ويفنى سببيته، ويجهر بنسبة كل أعماله إلى ربه = فما بالكم أيها الأنصار : لا تقتدون بنبيكم المعظم عندكم، وتفنون ذواتكم في ربكم، وتنسون ما قدمتم من جهاد، وبذل، وصنائع، وتنسبونها إلى الفاعل الحقيقي ــ جل وعز ــ

وأعتقد أن السادة الأنصار قد وعوا هذا جيداً، وجهروا وكرروا أن (لله ولرسوله المن والفضل) .

ما مضى كان في مقام الشدة، والابتلاء، والتصفية، وقد حقق أغراضه...

أما الأفعال التي وردت في مقام اللين، والتحبيب، وبيان مكانة الأنصار فإن الأفعال نسبت إليهم مباشرة إظهاراً للفضل، وتقريباً للنفوس وتحبيباً ..

(أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريداً، فآويناك، وعائلاً فأغنيناك) .

و لم تسند الأفعال إلى فاعلها الحقيقي مباشرة فيقال:

فنصرك الله بنا، فآواك الله بنا، فأغناك الله بنا ...

وإنما اختار ﷺ هذا النهج في مقام اللين توفية لمقصد التحبب والتودد للأنصار، وإبرازاً لما قدموا من جليل الصنائع للإسلام ولنبيه ﷺ .

وكما قرر البلاغيون فإن إسناد الفعل إلى سببه ـــ في المجاز الإسنادي ـــ يبرز قيمة السبب، وعظيم أثره في إحداث الفعل [1]، وفي هذا ما يتواءم مع مقصده ﷺ .

وقد ورد في الخطبة بعض الصور البيانية الموحية التي تلاقت مع بقية الأساليب في توفية المعنى، وتحقيق الغرض .. .

فالتشبيه ورد في رواية البخاري من قوله ﷺ في نهاية الخطبة : (الأنصار شعار، والناس دثار) تشبيها لمكانة كلٍّ عند رسول الله ﷺ ومدى قربه من قلبه ..

فقرب الأنصار منه ﷺ مثل الشعار -وهو الثوب الذي يلي الجسد- يتحقق في أكثر من مظهر ...

في القرب القلبي الذي هو الأصل في الإيمان، وقد حاز مجموع الأنصار ـــ رضي الله عنهم ـــ من هذا الود ما لم يقسم لمجموع من سواهم .

وفي القرب المكاني، فهم "أهل المدينة" الذين آووا ونصروا، وجاهدوا وبذلوا، وكانوا للدعوة وصاحبها العظيم نعم الموئل و الحصن، الذي لم يخترق قط، و لم يؤت الإسلام من قبلهم البتة، إنفاذاً لوصاة رسول الله ﷺ لهم .

كما وردت الاستعارة في لفظ (لعاعة) الذي سبق شرحه في دلالة المفردات ... وهي هنا قائمة على تشبيه ما أعطى المؤلفة باللعاعة التي لا قيمة لها عند ذوي الألباب، حيث إنها سريعة التغير مثل النبت الأخضر، بل محققة التلاشي مثل السراب...

وقد وردت الكناية في قوله ﷺ :

(أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله في رحالكم؟)

---

[1]- ينظر : خصائص التراكيب لشيخنا الدكتور/ محمد أبي موسى ـــ ١٠٥ ط وهبة سنة ١٤٠٠هـ ـــ ١٩٨٠م ثانية.

فذهاب (الناس) ـــ وهم المؤلفة ـــ بالشاة والبعير ـــ كناية عن العطايا...

وفي الكناية هنا تقليل من شأن العطايا، وتهوين من قيمتها، وفي توحيدها (الشاة والبعير) -وقد كانت جموعاً من كل نوع- إهمال لأعدادها، التي هي سبب الموجدة، وكأن هذه الأعداد لا تعلى من قيمتها، ولا ترفع من شأنها ...

وكل هذا يتلاقى مع كونها (لعاعة) تناغياً بين صور الخطبة، وتعاضداً في سبيل تحقيق الغرض المؤم ...

وفي قوله (وترجعون برسول الله في رحالكم) كناية عن نسبة حيث عبر عن رجوعه معهم، واختياره جوارهم (برجوعه في رحالهم) حيث لا يكون في رحال القوم إلا من هو منهم ...

ـــ وبأبي هو وأمي ﷺ ـــ فقد رجع تاجاً فوق رءوسهم، وإنسان عيونهم، ولكنه أدب النبوة وخلقها، ومنهج الرسالة في علاج القلوب وأدوائها.

كذلك وردت الكناية في قوله ﷺ :

(ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار...)

حيث كنى الأسلوب عن إيثار رسول الله ﷺ جوار الأنصار على كل جوار...

وفيه ما لا يقادر قدره من عظيم الحب والتفضيل وعليّ المكانة، سيما عندما نتذكر أن (الناس) هنا هم المعهودون بالإسلام والإيمان والصحبة، ومع كل هذا فقد آثر ﷺ الأنصار عليهم جميعاً...

فهنيئاً ثم هنيئاً، رزقنا الله حبهم، وحشرنا معهم في صحبة سيد الأولين والآخرين ﷺ .

بقي الحديث عن العنصر الصوتي [1] في الخطبة:

وأول ما يلحظ هنا هو تغاير البناء اللغوي، وما ترتب عليه من تنوع الأثر الصوتي في الجمل التي تكلم بها رسول الله ﷺ والجملتين اللتين وردتا على لسان

---

[1]- تبين قيمة هذا العنصر الصوتي إذا ما أعاد أداء الخطبة من يتقن فن (الإلقاء) فتتنوع درجات التنغيم حسب المعاني، وتمثل درجات الانفعال بها في نفوس المتكلمين ...

ولا زلت أذكر أول مرة سمعت فيها هذه الخطبة الشريفة من شيخنا الدكتور/ عبد السلام عبد الحفيظ ـــ رحمه الله ـــ سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م في كلية اللغة العربية بأسيوط في صعيد مصر، ولقد كان لإتقانه فن الإلقاء أثر بالغ في تمثلنا معاني الخطبة، وإحساسنا بتنوع الانفعال فيها.

الأنصار ...

فالأولى : بدأت بجمل ذات تنغيم عال، يلائم حالة الانفعال التي بدأت بها الخطبة في مقطع الشدة، الذي قصد به ﷺ اختبار نفوس القوم، وتصفية قلوبهم ...

(ما قالة، بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها على في أنفسكم؟)

(ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟)

وقد زاد من حدة هذا التنغيم المرتفع هذه المزاوجة المتحققة بين الجمل في (قالة .... وجدة ...)

(ألم آتكم ضلالاً ... وعالة ... وأعداء ...)

ويجب أن يراعى في تصور أداء الخطبة تناسق هذا كله مع تنغيم الاستفهامين: (الإنكاري، والتقريري) الواردين في صدر العبارتين (ما قالة...، ألم آتكم ...)

أما ما ورد على لسان الأنصار — رضي الله عنهم — فقد جاء هادئاً يخلو من نغم الحدة، تلاؤماً مع حالهم — رضي الله عنهم — من الحياء، والانكسار، والتواضع لله ولرسوله حين قالوا:

(بل الله ورسوله أمن وأفضل)

(وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل؟)

ثم قوبل هذا اللين الهادئ في كلام الأنصار بمثله من كلام رسول الله ﷺ مع بداية مقاطع اللين :

(أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم وصدقتم ...)

حيث ترجم الهدوء الصوتي عن الهدوء النفسي، ودل التنغيم الرخيم على حالة اللين والرضا التي غشيت الموقف كله، فجاءت العبارات النبوية لتعبر عن مآثر الأنصار، وفي أصواتها ما تذوب معه النفوس حياء وتواضعاً تجاه هذا التكريم النبوي الودود ...

ولا يغفل هنا التوازن الصوتي النابع من المزاوجة والسجع في (أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك ...)

ثم يرق الأسلوب، وتلين أصواته باطراد مع اللين المطرد من حيث المعاني والأحاسيس في مقاطع الخطبة الأخيرة :

(أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا ...)
(أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يرجع الناس بالشاة والبعير...)
(لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ...)

إلى أن يأتي مقطع الدعاء الخاتم، وقد وصل لين الأصوات إلى منتهاه، فتتهدج أصوات هذا المقطع، وتكاد تخالطها الدموع التي هطلت من أعين الأنصار، حين بكوا، (ثم بكوا، فكثر بكاؤهم، فبكى رسول الله ﷺ معهم)[1] في مشهد أثير، لا أظن أن له نظيراً فيما روت كتب السنة والسيرة من حياة رسول الله ﷺ وصحبه الكرام...

ولعل فيما مضي من تحليلٍ ما يكشف تآزر الصوت والمفردة مع الأسلوب والصورة في تأدية الغرض من سل ما دخل في نفوس الأنصار بسبب قسمة العطايا، وتزكية نفوسهم إلى أرقى مما كانت عليه قبل هذه الواقعة، وقد جاء كل هذا في بيان شاف، ومنهج نفسي دقيق ...

وبدهي أن سمت بيان النبوة أعم وأشمل من أن تحويه هذه الخطبة - على عظمتها — إذ إنها لا تتضمن سوى بعض عناصر هذه السمت، على حين تتمثل بقية عناصره فى النصوص الأخرى، سيما ما ورد منها فى شكل القصة، أو الموعظة، أو التشريع ...

وفى ضوء هذا تفتحت أمام الدارسين مسالك عديدة لرصد هذه الخصائص من خلال التطبيق الراشد على نماذج من هذه النصوص المتنوعة، فتكتمل من مجموع هذا كله الصورة الكلية لسمت هذا البيان الشريف .

1- في رواية المعجم الكبير للطبراني عن السائب بن يزيد

المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ت شاكر ط المدنى ١٤١٢هـ ١٩٩١م
- البيان والتبيين للجاحظ .
- تاج العروس للزبيدى .
- خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى ط وهبه ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م ثانية.
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ط المدنى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م ثالثة .
- السنن الكبرى للبيهقى
- صحيح البخارى
- صحيح مسلم
- فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى .
- لسان العرب لابن منظور .
- اللمع فى أسباب ورود الحديث للسيوطى .
- مختار الصحاح للرازى .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل .
- المصنف لابن أبى شيبة .
- المصنف لعبد الرزاق.
- المعجم الكبير للطبرانى .

* كافة المراجع التى لم توضح بيانات طباعتها من المكتبة الشاملة الإلكترونية – الإصدار الثانى .